لماذا تأخَّرَ الإبداعُ المعاصرُ في علم الكلام؟

د. محمد صالحين(*)

تحاول هذه الورقة أن تجيب عن الإشكاليات الآتية:

أولًا: ما مقتضياتُ ظهورِ علمِ الكلامِ في صدرِ الإسلامِ؟ وهل ظلتْ هذهِ المقتضياتُ حاضرةً في القرونِ الإسلاميةِ الوسيطةِ؟ وهل مَثَّلَ علمُ الكلامِ إبداعًا في تراثنا؛ حتى القرنِ السابع الهجريِّ؟

ثانيًا: هل توقف الإبداع الفكري الإسلامي المعاصر في علم الكلام، ولماذا؟

- هل كان لبروز التيارات السلفية أثر في توقف الإبداع، بل مجرد التأليف في علم الكلام؟
- هل كان لاشتغال المعاصرين بتأصيل قضايا العقيدة من القرآن والسنة مباشرة تأثير في توقف هذا الإبداع؟
- هل كان للتكلس الفكري في الأزهر والمؤسسات الدينية، نصيبٌ في جمود علم الكلام، وبقائه شكلًا ومضمونًا؛ كما وردنا من القرون الأولى؟
- هل انصراف كثير من أساتذة الفلسفة الإسلامية عن تجديد علم الكلام، وتحديث قضاياه، و إبداع أنماط معاصرة في تدريسه، و إدخال قضايا الحياة المستجدة في مفرداته: أسهم في تقوقع علم الكلام، وعزلته؟

ثالثًا: ما السبيل إلى إعادة الاعتبار لعلم الكلام، واسترداد مكانته، و إبراز أهميته؟ وهل يمكن الإشارةُ إلى محاولات اجتهادية فردية صدرتْ بالفعل في هذا الصدد، يمكن اعتمادُها

(*) أستاذ مساعد العقيدة والفكر الإسلامي بقسم الفلسفة الإسلامية - كلية دار العلوم - جامعة المنيا.

والبناءُ عليها، في تشكيل وعي إبداعي بضرورة تجديد قضايا علم الكلام، وأشكال طرحها، وضبط مفرداتها؟

تحاول هذه الورقة أن تناقش الإشكاليات السابقة، وأسئلتها المتنوعة، متلمَّسةً الطريق إلى فتوح جديدة في هذا العلم الذي وصل إلى حد التكلس النقلي غير المقبول؛ لكونه لا يصور حياة المسلمين المعاصرة تصويرًا حقيقيًّا، ولا يعبر عن الواقع الذي تعيشُه مجتمعات المسلمين.

(١)

نبت علم الكلام؛ معتمدًا على منهجية (عقلنة العقيدة)؛ ليذود عن التوحيد؛ بإظهار الحجة للموافقين، و إقامة المحجة على المخالفين.

وقد كان علم الكلام ضروريًّا، وكان منهجه نافعًا في حينه؛ حيث توخَّى دراسة قضايا أصول الدين المحورية الثلاثة:

- **الإلهيات**؛ إثباتًا لأولية واجب الوجود، وترسيخًا لوحدانية الخالق المبدع، وتنزيهًا له؛ بإثبات الصفات العلا، والأسماء الحسنى، ونفي أية شبهة نقص، أو تشبيه له بخلقه، وكان ذلك دفعًا لشبهات أهل الكتاب؛ عن ذات الإله، وصفاته.
- **والنبوات:** للبرهنة على ضرورة الوحي، وحقانيته، وتنزيه المرسلين عن الادعاء، والكذب على الله، و إثبات العصمة لهم، فيما يخص وظيفتي التلقي عن الله، والبلاغ للناس، دون التفريق بين أحد من رسل الله، مع التركيز على براهين صحة الرسالة الخاتمة، وعصمة صاحبها، ﷺ، وكان هذا واجب الوقت حينها.
- **والسمعيات:** التي تشمل كل الغيبيات؛ الإيمان بالملائكة، والحياة البرزخية، والبعث، والحساب، والجزاء، وما يدخل في ذلك من تفاصيل وفروع كثيرة.

وظل علم الكلام يؤتي ثماره الطيبة، في مجتمعات المسلمين، حتى اعترته ظواهرُ، انحرفت ببوصلته إلى غير السبيل الراشدة؛ ومن ذلك:

- دخول مبحث الإمامة في قضاياه، على استحياء أولًا، ثم بشكل فجٍّ بعد ذلك، مع أن هذا المبحث فقهي بامتياز، أعني أنه من فروع الدين، وليس من أصوله، وكانت هذه الظاهرة انتكاسة في تاريخ علم الكلام!

- استقواء تيارات من المتكلمين بالسلطة السياسية؛ كما حدث مع منظري المعتزلة الكبار؛ فأصبح بطش السيف بديلًا عن حجة العقل، وخسر العالم الإسلامي تيارًا تحرريًّا؛ لعدة عقود من تاريخه، بسبب هذه المراهقة الفكرية المُكلفة!
- وهنا برز الشقاق، وتحولتِ الأمة إلى فِرقٍ، وأصبح لكل فرقة منظروها، وانتقل علم الكلام من الحجاج الخارجي؛ لأهل الكتاب، والزنادقة، وغيرهم، إلى اللجاج الداخلي، بين ظاهري وباطني، وسُنّي وشيعي، ومؤيد للسلطة وخارجي عليها ،...، كل حزب بما لديهم فرحون، وتفرق المسلمون إيدي سبأ، وأجَّجَ الحكام هذا الصراع المخبول، وحوَّلوا دفته إلى مصالحهم الفئوية الضيقة، على حساب الأمة!
- دخول الفلسفة المشائية على خط علم الكلام؛ منهجًا، وقضايا؛ والنزاع على صدارة المشهد؛ بين الفريقين؛ المستمسكين بأصول علم الكلام، وغاياته، والراغبين في مزج علم الكلام بالفلسفة؛ منهجيَّةً وبحوثًا!

ومن ثَمَّ أصبح علم الكلام عبأً على مجتمعات المسلمين، وجزءًا من مشكلاتها، بعد أن كان منقذًا للعقول من لفح الشبهات العقدية، وجزءًا من حلول معضلاتها!

(٢)

نُقِلَ إلينا علمُ الكلام القديم التقليدي، مُحَمَّلًا بالمشاكل، والصراعات، والطائفية، وبدأ نجمُه يأفل بين العلماء، وطلاب العلم، والمدراس الفكرية العصرية، ولم تبزغ الروح التجديدية -فضلًا عن الإبداعية- في حلحلة الموقف، رغم محاولات مشكورة، حاول القيام بها فئامٌ من العلماء والمفكرين.

ومن أسباب تكلس علم الكلام في مجمله؛ أعني: منهجًا، وقضايا، وأسلوبًا، ومدارسة:

بروز التيارات السلفية:

وقد أثَّرَ تصدر هذا التيار للمشهد الفكري -ولا شك- في توقف الإبداع، بل في توقف التأليف في علم الكلام؛ كون هذا التيار نصويًّا بامتياز، لا يجيز أصحابُه الخروج عن نصوص الكتاب والسنة قيد أُنملة، ولا أدنى من ذلكم، وبدأت دوامة التبديع، والتفسيق، والتجريح، بل التكفير تؤتي ثمارها الخبيثة في نفوس شباب الأمة، الذين أمسوا الآن شيبَها، وبدلًا

من أن يكون علم الكلام (الجديد/المعاصر/المبدع) مخرجًا من مشاكل الأمة: صار ركنًا ركينًا من أسباب زيادة الفرقة والتشرذم، بل النكاية والتقاتل.

وبرز صراع خفي، ثم استعلن بين السنة والشيعة من ناحية، ثم بين الأشعرية والسلفية من ناحية أخرى، ثم دخلت السياسة على الخط، فأذكت النيران وأشعلتها، وانتقل الحجاجُ الفكري -على مساوئه- إلى قتال، تُسفك فيه الدماء، وتُجتاح فيه الحدود، وتُستدعى فيه القوى العالمية؛ استقواءً من فريق من المسلمين، على فريقٍ من المسلمين.

فهل هذه أجواء مناسبة لتنقية علم الكلام، و إصلاحه، فضلًا عن تجديده، والإبداع فيه؟!

اشتغال المعاصرين ـ من علماء ومفكرين ـ بتأصيل قضايا العقيدة من القرآن والسنة مباشرة:

مما يعني انتهاء منهجية علم الكلام (عقلنة العقيدة) والرجوع القهقرى إلى ما قبل عصر التدوين؛ حيثُ ينزوي الإبداع أو يُحرَّم؛ لأنها ابتداع في أصول الدين، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار!

وكان لهذا التراجع المنهجي والفكري: أكبر تأثير في توقف تيار الإبداع في علم الكلام، وأصبح علم الكلام: متونًا عقدية؛ نثرية، ورجزية، يخاطِبُ بها المسلمون بعضُهم بعضًا، وكأنهم يعيشون في هذا الكون وحدهم، وكأنهم ليسوا مكلفين بالبلاغ والدعوة إلى دين التوحيد، وكأنهم لا يشعرون بالأخطار التي تداهم مجتمعات المسلمين؛ من شتى النواحي؛ الفكرية، والعقدية؛ فضلًا عن السياسية والاقتصادية، وكأن هجران علم الكلام هو الحل؛ لجميع أزماتنا!

التكلس الفكري في الأزهر والمؤسسات الدينية:

وكان لهذا التكلس الفكري أكبرُ نصيبٍ في جمود علم الكلام، وبقائه شكلًا ومضمونًا؛ كما وردنا من القرون الأولى؟

فما زالت كتب العقائد على المذهب الأشعرية تدرس؛ كهيئتها يوم كتبت منذ قرون من الزمن، بمتونها، وشروحها، وحواشيها، كأن الزمن قد توقف عند لحظة تأليفها؛ قديمًا، أو وسيطًا، أو كأن هذه المتون من آي التنزيل، أو من سنة خاتم النبيين؛ فلا تجديد، ولا تحديث،

لا شكلًا، ولا مضمونًا، حتى كأننا في متحف التاريخ، ولسنا في خضم الحياة الموارة بالأحداث، الفوارة بالأفكار المتدافعة!

زدْ على هذا: انشغال الأزهر -كمؤسسة- بالصراع الخفي، والمعلن، مع الفكر الوهابي؛ بدلًا من إيجاد صيغة تعايش بين الاتجاهين -وهذا ممكن وواجب- انخرط التياران في صراع استقطابي حاد، وجدل وهمي لا حقيقة له، اللهم إلا الإملاءات السياسية، والتنافس اللا واعي على اكتساب مزيد من الرقع الجغرافية، بما عليها من البشر!

وفي أتون هذه الصراعات: لا مجال للتفكير في تجديد، أو تحديث، أو تطوير، فضلًا عن إبداع فكري، لا في علم الكلام، ولا في غيره، لا في أصول الدين، ولا فروعه!

انصراف كثير من أساتذة الفلسفة الإسلامية عن تجديد علم الكلام:

وكأننا -نحن أساتذة علم الكلام- قد قنعنا من الغنية بالإياب، وأضحى الأمر وظيفة نتعايش منها، لا رسالة سامية؛ نعيش لها، ونحمل همها، بل همومها، فزهدنا في الاجتهاد، واقتصرنا على تأليف مذكرة للطلاب، أو تدريس من مصدر، أو مرجع، وأصبحنا نلوك الكلام، أداءً للواجب، وإسقاطًا للتكليف الثقيل، اللهم إلا نفرًا معدودين؛ دأبوا على الاجتهاد، ونحتوا في الصخر، وعكفوا على المشكلة، ومحصوا التراث، وتفاعلوا مع الواقع، وقدموا لنا رؤيتهم التي ارتقتْ في بعض الأحايين إلى مشاريع فكرية كبرى، سنتناول طرفًا منها في المحور القادم.

الانشغال بالفرعيات الكلامية عن الأصول العقدية:

وهذا داءٌ قديمٌ متجددٌ، فالانشغال بقضايا الأسماء والصفات من فروع التوحيد، فإذا سلم التوحيد: فلا جدوى من الانشغال بهذه القضايا الفرعية، لكن التيارات الكلامية لا تزال تصر على جعلها مشكلة المشاكل، ومعضلة المعضلات، على الرغم من تجاوز الزمن إياها!

والاشتغال بقضية القدر أصبح من الماضي، والقضايا الجديرة بالاشتغال بها الآن هي: قضية الخير والشر، وقضية الحرية، وقضية الإرادة الإنسانية، وقضية التدافع، وقضايا الكرامة الإنسانية، والعدالة الاجتماعية، والتعايش السلمي بين جميع بني البشر؛ كقاعدة عامة، تشذ عنها البشرية -فقط- عن الضرورة المتفق عليها!

والجدل العقيم حول قضايا غيبية؛ من أمثال: عذاب القبر، وفتنته، ونعيمه، وطبيعة الحياة البرزخية: لا تستحق كل هذا الإسراف في اللجاجة واللدد والخصومة، والأجدر هو التفكير والحوار حول: كيف يعيش الإنسانُ في الدنيا حياة طيبة؛ ليتيسر له أن يحيا في الآخرة حياة طيبة.

١. وتصنيف البشر، وتحديد مصائرهم، وإجراء أحكام صارمة على أنفسهم، وأموالهم، وديارهم، من القضايا العقيمة؛ التي اختص الله بها نفسه سبحانه، ولم يتركها لأحدٍ من خلقه، حتى النبيين والمرسلين: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥]، ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١، ٢٢].

ويبقى الأمل متمثلًا في أننا إذا وضعنا أيدينا على مكامن الداء، وأسباب الاعتلال: أمكننا أن نبحث عن الدواء؛ ونتحرى عن المخرج من المأزق، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

(٣)

برزت محاولات مشكورة، واجتهادت مبرورة؛ لتجديد علم الكلام؛ منهجًا، وغايةً، وقضايا، تواضع بعضُها فاكتفى بالتنظير التجديدي، وتعملق بعضها حتى صار مشروعًا علميًّا متكامل الرؤية، ومترامي الأطراف.

وتم رصد بنود الإبداع في أغلب هذه المشروعات، وتمثلت في:

- ❐ التخلص من القضايا التاريخية التي لم يعدْ لها داعٍ في هذه الحقبة من تاريخ المسلمين، بل إن إحياءها يُذكر نار الخلاف، ويقلب مواجعَ الماضي.
- ❐ التخفف من فروع العقائد، والاقتصار على أصول القضايا الكبرى.
- ❐ تجذير المنهج العقلي، وإبداع طرائق جديدة في تأصيل القضايا الكبرى؛ توافق الطفرة العلمية الكونية العملاقة التي تسنمها بنو البشر في القرن الأخير من الزمان.

- إدخال جميع قضايا (الإنسان) في بنية علم الكلام (الجديد / المعاصر)، وعدم الاكتفاء بالقضايا الكلامية التقليدية التي لا تسمن، ولا تغني من جوع.
- الربط بين علم الكلام المعاصر -من جهة، وبين علوم الكون، والاجتماع، والسياسة؛ من جهة أخرى.
- النـزول من الطبيعـة (الكلاميـة) لعلم الكـلام، إلى الطبيعـة التطبيقيـة، التفاعلية، التشـاركية؛ أي: مـن علم الكلام إلى العمل بالكلام، مـن النظر إلى التطبيق، من عالم الغيب إلى علم الشـهادة، مـن قضايا الفضاء إلى قضايا الأرض، مـن التسليم والإذعان إلى الكفـاح والمواجهة، من الرضا بالمقسوم إلى انتزاع المقسوم، من التوكل السلبي إلى المواجهة الإيجابية، من الانشغال بالذات إلى الانشغال بالموضوع، من الانكفاء المحلي إلى آفاق الكونية، من الاسـتهلاك إلى الإنتاج، مـن التواكل إلى السعي، من الاقتراض إلى الاكتفاء، وهلم جرا.